الحياة الادبية فى الحجاز

للأستاذ أحمد أبو بكر إبراهيم

كتب الأستاذ « إبراهيم هاشم فلالى » مقالا تحت هذا العنوان فى عدد سابق من « الرسالة » عرض فيه صوراً جميلة من الأدب الحجازى الحديث ، فرأيت إتماماً للفائدة أن أتبع مقاله بكلمات عن النهضة الحديثة لهذا الأدب حتى يدرك قراء الرسالة شيئاً من أسباب هذه النهضة والاتجاهات الأدبية فى هذه البلاد المقدسة .

ولست أريد فى هذه الكلمات أن أتتبع النهضة من لدن وجودها فى الحجاز على يد أحمد بن زينى دحلان المتوفى سنة ١٨٨٦ م ولكنى سأكتفى بالنهضة السعودية القائمة فاذا ما انتهيت من عرضها بسطت الكلام فى الشعر والنثر وبينت خصائصهما واتجاهاتهما .

النهضة السعودية

الحجاز الحديث قطار متوثب للرقى مؤمن بقدعه العريق وواثق بالنجاح ؛ فهو يبذل الجهد ويواصل العمل لمسايرة الأمم العربية التى سبقته فى النهضة . وقد بعث فيه هذا الروح القوى ملك عربى واسع الآمال يجيد العربية ويطرب للشعر البارع والنثر البليغ ويستحث الأدباء للاجادة ويدفعهم إلى العناية ، فهو يكافئهم على إحسانهم ويحلهم من نفسه منزلة سامية ، ويكفى أن يقرأ التراجم لهذه البلاد ثبتاً بأسماء المستخدمين فى الإدارات والمصالح ، فيؤمن بعد ذلك أن الحكومة السعودية لم تخترهم عبثاً وإنما كشفت فيهم البراعة فى الأدب فأرادت أن تكافئهم عليها بهذه المناصب ليعيشوا راضين مطمئنين منصرفين إلى الإجادة والإنتاج : فالشيخ محمد سرور الصبان ، والنزاوى ، وعلى حافظ ، وعبد القدوس الأنصارى . كل أولئك وغيرهم من الأدباء يتولون كثيراً من مناصب المملكة وينهضون بأعبائها وينالون فوق ذلك عطف جلالة الملك وإحسانه ، ولهذا وغيره من الأسباب الثقافية والقومية رأينا الأدب الحجازى فى هذه الفترة الوجيزة من الزمان يثب وثبة توشك أن تكون طفرة .

ومن أسباب النهوض فى العهد السعودى العناية بالقومية العربية بعد أن أغفل الناس شأنها ردحاً طويلا من الزمان ؛ فقد جاء العهد الجديد يحمل الطابع العربى الخالص من كل شائبة ودخيل ، ويحمل القوم على التعصب لكل مظاهر العروبة حتى لا تفنى شخصيتهم وتتضاءل ذاتيتهم ، عندئذ أدركوا أن فى الحياة الجديدة مغزى سامياً لم يدركوا إلا أوائله فى الثورة الحجازية ، ولا شك أن ارتباط الأدب بهذه القومية ارتباط متين فهو يقوى بقوتها ويضعف بضعفها . ويكفى أن يشعر الناس أن مليكهم معنى بنهضة عربية تعيد إلى الحاضر سيرة عهود أجدادهم السابقين ؛ حينئذ يعملون جاهدين ليسجوا على منوالهم ويتأثروهم فى كل شىء : فى أخلاقهم ولغتهم ومظاهر حياتهم .

والقارىء للشعر الحجازى فى النهضة السعودية يجد ظاهرة التعصب للقومية العربية واضحة جلية : فالشعراء كثيراً ما يذكرون ما كان للشرق والعرب من مجد سابق ويتحسرون على هذا المجد الذى ضاع واندثر وحل محله التأخر والجمود . وفى هذه المعانى يقول الشاعر الغزاوى شاعر الملك ابن السعود :

أجلْ . تقهقر هذا الشرقُ فانقبضَتْ
قناته بعد أن صالت بها الأممُ
واندكّ مجدُ بنيه منذ أن غفلوا ... عن الحياة وزلّتْ منهمُ القدمُ
وخالفوا فطرةَ الأخلاق واختلقوا ... فساءهم كلُّ خسفٍ من رقى بهمُ

وهو يقول أيضاً فى موضع آخر مبيناً أن العرب قد عرفوا الحضارة وسبقوا إلى النهضة قبل الغربيين :

هل كان للغرب المصوّتِ نأمةٌ ... أيام كان الشرق لا يتكلمُ
أو كان للغرب المدل بعلمه ... بَصرٌ بما أمسى به يتنعمُ

فى هذه الأبيات وأمثالها نرى اعتداداً بالمجد التليد الذى تركه العرب باقياً على الزمان كما نرى اعتزازاً به وحرصاً على إعادته ففيه البطولة وفيه المجد والمعانى السامية . وقد قال أحدهم وهو عبد الوهاب آشى فى هذا المعنى :

بلادٌ سمتْ بالأولى عرفوا ... طريقَ المعالى ومضمارَها
سعى المجدُ طوعاً إلى بابهم ... وأولتهم الأرضُ أمصارها
إذا جَدّ جِدّ الوغى يمموا ... ميادينها وجلوا عارها
وما عن وغى يؤثرون السلام ... ولكن يريحون ثوارها

بهذا الإيمان الصادق بمجد الأسلاف يتدفق شعر الحجازيين المحدثين ويرون أنهم لن ينجحوا فى حاضرهم إذا لم يقتفوا آثار السابقين ويعملوا على غرارهم فإذا فعلوا ذلك كان المجد قريباً منهم لأنهم أهل له من قديم الزمان وفى ذلك يقول عبد الله بلخير :

بُورِكتَ يا عزم الشباب وقُدستْ
روحُ الشجاعة فيـــك والإقـدامُ
أملُ الجزيرة قد أنيط بعزمكم بغـدادُ ترقب نورَه والشامُ
متطلعين إلى الحجاز فإنه فى كل عصرٍ قائدٌ وإمامُ

ومن الخير فى هذا المقام أن ننقل إلى القارىء ما كتبه معالى الدكتور هيكل باشا فى نهضة الحجازيين عن طريق الالتفات إلى الماضى والاعتزاز بالقومية العربية فهو يقول : « وما دام شباب العرب قد بدأ وانشاطهم الفكرى على هذه الصورة الواضحة فى (أشعارهم) فمن حقهم وحق كل عربى أن ينفسح أمامهم ميـدان الأمل فى المستقبل ، فالأدب نواة كل عمل وكل حياة بل هو رحيق الحياة وروحها ، والروح ما قويت قديرة على كل شىء ، ولقد أتيح لى أن أتعرف إلى كثيرين (منهم) فرأيت فيهم طموحا وأملا وحرصاً على تحقيق هذا الأمل ، أما وهنا شأنهم وهذه عزيمتهم الصادقة فلهم أن يصوروا مستقبل بلادهم كما يشاءون ، فإذا جاء الوقت الذى تدوى فى العالم صيحته كان هذا طليعة العظمة العربية المقبلة وكان المتقدم الذى يسير فى أثر أمجاد أبناء أمجاد يعيدون لبلادهم عظمتها ومجدها »

والحجازى خليق ببلوغ هذه الغاية التى يسعى إليها لأنه جلد صبور ، قد أوحت إليه الحياة الخشنة فى الصحراء كثيراً من أخلاق الصرامة والثبات والعمـل المتلاحق الذى لا يدركه فتـور ولا كلال .

ولا شك أن هذا الاتجاه العربى القوى قد أفاد اللغة والأدب أجل الفوائد ، ولا شك كذلك أن هذه الآمال التى استمدوها من الماضى العريق قد دفعت الأدب دفعاً قوياً ظهرت ثمراته فى عهد قليل ، ولن يتوانى هذا الأدب عن تقدمه السريع وإمعانه فى التجديد والرقى ما دامت القومية العربية طابعه وفسحة الآمال تستحثه وتنهض به . وتاريخ الآداب فى الأمم المختلفة يوضح لنا هذا القول ؛ فما قوى أدب أمة من الأمم إلا فى ظلال قوميتها وعلى أساس من آمالها التوثبة الجريئة ، وما ضعف إلا فى العهود التى تخاذل فيها الناس وتناسوا قوميتهم وفقدوا آمالهم ؛ لأن الأدب يتمشى مع القومية والآمال ويستمد منهما معانى الحياة الباقية الخالدة

الثقافة

الثقافة عماد الأدب ومادته ولا ينهض أدب فى أمة من الأمم ما لم يتهيأ لها من وسائل العلم ما يقدرها على إدراك الحق والجمال ، وبهذه الثقافة يتسع أفق الأديب فإذا ما تناول موضوعاً تناوله عن بصر به وعلم بدقائقه ونواحيه المختلفة .

وقد منيت الثقافة فى الحجاز فى العهد العثمانى بما جعلها ضئيلة متأخرة ومحدودة تافهة لا تغنى ولا تنفع فى إعداد الأديب المثقف ؛ فقد اقتصر التعليم فى ذلك العهد على التعليم الابتدائى وهو كما نعلم لا يعد شاعراً ولا يخرج كاتباً ، فإذا عرفنا مع هذا أن العناية باللغة التركية قد فاقت العناية باللغة العربية وأن المواد المختلفة فى هذه المدارس كانت تدرس بالتركية ؛ أمكننا أن ندرك إلى أى حد ضعفت العربية فى هذه البلاد .

نعم كان فى الحجاز الحرمان الشريفان يقوم فيهما العلماء بتدريس الدين واللغة العربية على الطريقة التى كانت تتبع فى الأزهر الشريف وهى طريقة لم يظهر فضلها إلا فى حفظ العلوم اللسانية والدينية من الضياع ولكنها لم تجد فى تخريج الأدباء والشعراء .

لهذا كله أشفق المصلحون فى الحجاز من ذوى المروءة على اللغة العربية ومصيرها فهبوا لإنشاء المدارس التى تنهض بالدين والأدب وكان أسبقهم إلى هذا العمل السيد محمد زنيل فقد أنشأ مدارس الفلاح فى جدة ومكة سنة ١٣٢٦ للهجرة وجاهد فى سبيل نهضتها وبقائها على الرغم مما أثير حولها من الشكوك والأوهام ، وكان لهذه المدارس الحرة الفضل الأكبر فى تخريج طائفة من الشبان هم الآن حملة لواء النهضة الأدبية والفكرية فى البلاد الحجازية .

(البقية فى العدد القادم)

أحمد أبو بكر ابراهيم